حين تنهار الأوطان

دروس في العدل من رحم المأساة

تمكين TAMKEEN

KNO SCHOOLS EMPOWERING HUMANITY

360 ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

ثمّة لحظات في التاريخ تتوقّف فيها الأمم أمام مرآة قاسية، ترى فيها ليس ما كانت عليه، بل ما آلت إليه، وفي هذه المرآة المتشظّية، تُطرح الأسئلة الكبرى:

كيف تتحوّل الأحلام إلى رماد؟ وكيف يصبح الوطن الذي حمل يوماً وعود الغد، مسرحاً لأقسى المآسي؟

فها هو السودان، ذلك العملاق النائم في قلب أفريقيا، الذي تتناغم على أرضه ألوان الطبيعة وثقافات البشر، يروي بتراب أرضه قصّة أمّة كانت وما زالت حاملة لراية العزة والكرامة، فقد كان يوماً – وما زال - بلد الحضارات المتعاقبة التي تعانقت على أرضه، ومعقل انصهار القيم العربية الأصيلة مع العمق الأفريقي الثريّ، وهو من حمل على كاهله سنوات من الاستعمار، ولكنّ إرادة أبنائه كانت أقوى، فانتفضوا حتى نالوا استقلالهم عام 1956، ليبدأوا رحلة البناء والتأسيس.... ولكنّه اليوم -للأسف - يمرّ بمحطة صعبة في مسيرته، إذ تعصف به العواصف وتتهاوى فيه الأحلام، فيرسخ تحت نير من الصراع بين ماضٍ مشرق وحاضر متأزم، وبين يأس واقع وأمل مستقبل، فالسودان اليوم ليس مجرّد حالة جغرافيّة تعاني، بل هو درس إنسانيّ عميق في ثمن الظّلم وتكلفة غياب العدل، ومرآة تعكس لكلّ مجتمع ما يمكن أنْ يحدث حين تُستبدل القيم الإنسانيّة بمنطق القوّة، والمواطنة بالانتماءات الضيّقة....

ففي صميم كلّ انهيار حضاريّ، ثمّة خلل أساسيّ في معادلة العدل، ذلك العدل الذي أمر به اللّٰه ليكون قانوناً كونياً يحكم بقاء الأمم وسقوطها، فالعدل هو الأساس الذي تُبنى عليه الحضارات، وغيابه هو الشّرخ الذي تتسرّب منه أشكال الفساد والانهيار بأكملها...

فلو نظرنا إلى مسيرة نصف قرن من التّدهور، فإنّنا لن نرى مجرّد أحداث متتالية، إنّما سنرى نمطاً متكرّراً، بأنّه كلّما اتسعت دائرة الظلم، اقتربت ساعة السقوط، فالنّفط الذي اكتُشف في السبعينيات لم يكن نقمة بذاته، بل كان اختباراً لقيم المجتمع، فحين اختار من بيدهم السلطة أنْ يحرموا أصحاب الأرض من خيرات أرضهم، لم يكونوا يرتكبون خطأً اقتصادياً وحسب، بل كانوا يزرعون بذور التمزّق في نسيج الوطن....

وهذا التمزّق قد غدا لعنة على الأمم، رغم كونه في الأصل تنوّعاً ونعمة لا نقمة، ولكنّه تحوّل إلى سيف قاطع حين استخدم كأداة للتفرقة والإقصاء، فما حدث في السودان لم يكن صراعاً بين هويّات متباينة، إنّما كان استغلالاً منظّماً للاختلاف لخدمة أجندات السلطة، فقد باتت النّفوس تصنّف إلى "مركز" و"هامش"، وكانت الرسالة واضحة من وراء هكذا تصنيف؛ بأنّ هنالك من يستحقّ الإنسانيّة كاملة، وثمّة من يُمنح فتاتها، ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، أسس كونيّة للعلاقات الإنسانيّة ترتبط بالتنوّع للتّعارف والتّكامل، لا للتّفاضل والتّمييز، ولكنْ حين تُقلب هذه المعادلة، وحين تُستخدم الهويّة القبليّة أو الإثنيّة كسلاح سياسيّ، فإنّ النتيجة حتميّة وهو وجود مجتمع ممزّق يأكل نفسه من الداخل....

هذا ومن البديهيّ أنّ أيّ مجتمع يقوم على ركيزتين لا ثالث لهم؛ توزيع عادل للثروة، ومشاركة حقيقية في السلطة، وحين تنهار إحداهما، يختلّ التوازن؛ وحين تنهار كلتاهما، يصبح الانهيار الشامل مسألة وقت، فعندما تتحوّل موارد الوطن إلى غنيمة تتقاسمها نخبة ضيّقة، بينما تعيش الأغلبية على هامش الحياة، فإنّ العقد الاجتماعيّ سينفسخ، ولن تعود الدولة وطناً يجمع، إنّما ستصبح آلة للنّهب المنظّم....

فاقتصاد الريع الذي ساد العقود الأخيرة حوّل الدولة من كيان ينتج الثروة ويوزعها بعدل، إلى ساحة تتصارع فيها الذئاب على الفريسة، فالنفط أولاً، ثمّ الذهب لاحقاً، لم يكونا نعمة تُستثمر لبناء مستقبل الأجيال، إنّما تحوّلا إلى لعنة تُستخدم لتمويل الحروب وإثراء المتنفّذين...

وما المآل المنتظر لهكذا تداعيات سوى انتشار الفساد والظلم المؤذن بخراب العمران، فحكمة ابن خلدون لم ولن تكون مجرّد ملاحظة تاريخيّة، إنّما هي قانون اجتماعيّ صارم، والتاريخ ممتلئ بشواهد الأمم التي سقطت لا بسبب ضعفها العسكري أو فقرها الاقتصاديّ، إنّما بسبب ظلمها الداخلي، وفي ذلك قال اللّه تعالى:﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ [الكهف: 59].

فالظلم له ديناميكيّة تراكميّة؛ إذ يبدأ صغيراً، ثمّ يتوسّع، ثمّ يصبح نظاماً، وحين يتحوّل إلى نظام، فإنّه يفقد القدرة على إصلاح نفسه من الداخل، فكلّ محاولة للتّغيير تُقابل بقمع أعنف، وكلّ صرخة للعدالة تُواجه بمزيد من الإسكات، حتى يأتي اليوم الذي ينفجر فيه كلّ شيء....

ففي ثورة ديسمبر 2019، كانت هناك محاولة يائسة من شعب أنهكه الظلم لاستعادة وطنه، ولكنّ الأنظمة الظالمة لا تسقط بسهولة، فهي تمتلك أدوات العنف وشبكات المصالح المتشابكة، وتلك الفترة الانتقالية لم تفشل نتيجة ضعف المدنيّين وحسب، إنّما لأنّ جذور الظلم كانت أعمق من أنْ تُقتلع بخطابات الأمل وحدها...

فالحرب الدائرة اليوم بين الجيش والدّعم السّريع ليست صراعاً على مبادئ أو قيم، إنّما هي صراع على الغنيم، فهي المرحلة الأخيرة من تحلّل الدولة، وفيها تتحوّل المؤسّسات العسكريّة نفسها إلى عصابات مسلّحة تتقاتل على النّفوذ والثروة، فالمأساة الحقيقيّة أنْ الضحية في هذا الصراع ليست طرفاً واحداً، بل هو الشعب بأكمله، الذي يُسحق بين فكّي وحشين لا يعرفان إلاّ منطق القوة، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، فهنا تحذير قرآنيّ يكشف عن حقيقة مرعبة مفادها أنّ الفتنة حين تستعر، لا تميّز بين الظالم والمظلوم، بل تطحن الجميع، فالمجاعات، التهجير القسري، انهيار الخدمات، وموت الأطفال من الجوع والمرض - كلّ هذا ليس مجرد "آثار جانبيّة" للحرب، بل هو الهدف غير المعلن وغايته تدمير أيّة إمكانيّة لقيام مجتمع سليم....

فمأساة السودان ليست حالة معزولة، إنّما هي مرآة يمكن لأيّ مجتمع أنْ يرى فيها مستقبله المحتمل إنْ سار على ذات الدرب، فالدروس واضحة وقاسية..

أوّلها أنّ أيّ مجتمع يبني هويّته على الإقصاء يحفر قبره بيديه، فالمواطنة المتساوية ليست رفاهية فكريّة، إنّما هي ضرورة وجوديّة، فحين يشعر كلّ فرد بأنّه جزء حقيقي من الوطن، دون النظر إلى لونه أو لهجته أو معتقده، حينها فقط يكون هناك وطن حقيقيّ...

وثانيها لا يمكن لمجتمع أنْ يستقرّ وهو يشهد تفاوتاً فاحشاً في توزيع الثروة، فحين تتركّز الموارد في أيدي قلّة، بينما تعاني الأغلبية من الحرمان، فإنّ الانفجار قادم لا محالة، فالتنمية الحقيقيّة ليست في حجم الثروة المُستخرجة، إنّما في عدالة توزيعها وأثرها على حياة الناس....

وثالثها أنّ مؤسّسات الدولة إنْ تحوّلت إلى أدوات لحماية السلطة بدلاًمن خدمة المواطن، سيصبح الانهيار محتوماً، فالجيش الوطنيّ يجب أنْ يكون حامياً للوطن لا مالكاً له، والأجهزة الأمنيّة يجب أنْ تحمي الناس لا أنْ تكون مصدر خوفهم....

ورابعها أنّ التدخّلات الخارجيّة من الدول الإقليميّة والعالميّة تعمّق الجراح، فهي لا تتدخّل في الشأن السوداني دفاعاً عن قيم إنسانيّة، إنّما خدمة لمصالحها الضيقة، فكلّ سلاح يُرسل، وكلّ تمويل يُقدّم لطرف ضدّ آخر، إنّما يطيل أمد المعاناة ويعمّق الانقسام، فالحلّ الحقيقيّ لا يمكن أنْ يأتي من الخارج، بل يجب أنْ ينبع من إرادة داخليّة للتّغيير، لذلك فهنا نداء إلى الدول المنخرطة في المشهد السوداني، بوقف فوريّ وغير مشروط عن تزويد أيّ من الأطراف المتقاتلة بالأسلحة والذخائر أو الدعم اللوجستي الذي يغذي الصراع ويديم المعاناة الإنسانية، ومناشدة بتحويل مسار جهودهم لدعم الحلول السياسية ودفع جميع القوى الوطنية السودانية نحو وقف إطلاق النار الدائم، وبدء حوار وطني شامل، وإيجاد مخرج سياسي يليق بتضحيات وشعب السودان، فدماء السودانيين ليست رخيصة، وهم ليسوا رهاناً في صراعات تلك الدول الجيوسياسية، وقد آن الأوان لأنْ يكونوا جزءاً من الحلّ، لا جزءاً من المشكلة....

وهنا يجدر بنا أنْ نعلي من شأن المبادرة الإيجابيّة التي قدّمها صاحب السمو الأمير محمد بن سلمان، ولي عهد المملكة العربية السعودية، خلال زيارته الأخيرة للبيت الأبيض، عندما حثّ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب على اتّخاذ إجراء حاسم وفعّال لوقف الحرب المشتعلة في السودان، وذلك على الرغم من أنّ الأزمة السودانية لم تكن ضمن أولويات جدول التّدخّل الأمريكيّ في تلك الفترة....

وبعد،

وعلى الرّغم من قتامة المشهد، فإنّ التّاريخ يعلّمنا أنّ الأمم قادرة على النّهوض من تحت الأنقاض، ولكنّ هذا النّهوض لدولة السودان سيتطلّب رسم خارطة طريق جديدة، يسبقها قبل كلّ شيء وقف إطلاق النار الدائم والنزع العسكري، وتفعيل آليّات محايدة لمراقبة وقف إطلاق النار، والبدء بعملية فصل القوّات ونزع سلاح الميليشيات في المدن الرئيسية، و فتح الممرات الإنسانيّة الآمنة في أنحاء البلاد جميعها دون عوائق...

ومن ثمّ تبدأ خارطة الطريق، وهي فعلياً خارطة طموحة ولكنّها ليست مستحيلة، فتاريخ السودان وحضارته وثرواته البشرية والطبيعية تؤهّله لأنْ يكون دولة رائدة، والمفتاح يكمن في ...

بداية قويّة تتمثّل بحكومة رشيدة يلتفّ حولها الشعب بأكمله، وتكون مهمّتها إنهاء الحرب وإدارة الفترة الانتقالية بشجاعة غير عاديّة وإرادة حديديّة للتّغيير، واعتراف بالأخطاء، ومحاسبة الظّالمين، وبناء نظام جديد قائم على العدل الحقيقيّ، وإحداث تغيير من الدّاخل..

وثانيها إعادة بناء الأمن والعدالة، وحلّ الميليشيات ودمج أفرادها في جيش وطني موحد أو برامج إعادة تأهيل، مع ضرورة التّوجّه نحو إصلاح قطاع الأمن والشرطة على أسس مهنية واحترافية لحماية المواطنين، إلى جانب إعادة بناء النظام القضائي لتحقيق العدالة والمساءلة، بما في ذلك محاكمة مرتكبي جرائم الحرب.

وثالثها إعادة بناء الوعي الجماعيّ، والإيمان بأنّ المواطنة أقوى من القبيلة، وأنّ العدل أثمن من الغنيمة، وأنّ الوطن ملك للجميع لا لفئة دون أخرى...

ورابعها إيجاد عقد اجتماعيّ جديد يضمن المساواة الكاملة بين المواطنين جميعاً، وترسيخ أسس لنظام اقتصاديّ عادل يحوّل الموارد إلى تنمية حقيقيّة لا إلى غنيمة حرب...

وخامسها وجود حكم لامركزيّ يحترم الخصوصيات المحلية ويوزّع السلطة بعدل، ومصالحة وطنيّة شاملة تعالج جراح الماضي دون إنكار أو انتقام، ومؤسّسات مدنيّة قويّة تحمي الديمقراطيّة وتمنع عودة الاستبداد...

وسادسها معالجة الكارثة الإنسانيّة الحاصلة، وشنّ حملة إغاثة إنسانيّة دوليّة ضخمة لتوصيل الغذاء والدواء والماء بشكل عاجل، مع إعادة تأهيل المستشفيات والمرافق الصحية الأساسية، وتوفير الحماية للمدنيين من العنف والاستغلال ، وخاصة النازحين والنساء والأطفال...

وسابعها إصلاح الاقتصاد المنهار، بوضع خطة طوارئ اقتصادية لمكافحة التضخم المجنون واستقرار سعر الصرف، والعمل على إصلاح النظام المصرفي واجتذاب الاستثمارات الدولية، واستعادة قطاع الزراعة كرافد أساسي للأمن الغذائي والاقتصاد...

وثامنها إنشاء هيئة للمصالحة الوطنيّة وبناء الثقة، من خلال عقد مؤتمر وطني شامل يشارك فيه جميع مكونات الشعب السوداني (مدنيون، أحزاب، نقابات، شباب، نساء) لرسم ملامح المستقبل...

وتاسعها العمل على صياغة دستور جديد بالتوافق الوطنيّ يضمن الحقوق والحريات للجميع، ويؤسّس لدولة مدنيّة ديمقراطيّة، إلى جانب ضرورة فصل الدّين عن السياسة بشكل واضح، والتّوجّه نحو الانتقال الديمقراطي الكامل بإجراء انتخابات حرّة ونزيهة تحت إشراف دوليّ، ونقل السلطة بشكل سلميّ لحكومة منتخبة...

وعاشرها إطلاق مبادرة)المواطن أولاً(، التي تقوم على مبدأ بسيط لكنّه ثوريّ؛ فكلّ قطاع في الدولة، كلّ مؤسّسة، كلّ برنامج، وكلّ مشروع، يجب أنْ يخدم المواطن ويحسّن معيشته، لا أنْ يخدم نفسه أو يبرّر وجوده....

وآخرها إطلاق إستراتيجيّة تنموية شاملة تبدأ بالاستثمار في رأس المال البشريّ (الصّحة، التّعليم) لبناء جيل جديد، وتنويع الاقتصاد والاستفادة من الموارد الطبيعيّة (زراعة، ثروة حيوانية، معادن) بشكل عادل ومستدام، وتعزيز دور السودان الإقليميّ كجسر للتعاون والاستقرار في أفريقيا والعالم العربي....

وختاماً،

فإنّ مأساة السودان ليست درساً للسودانيين وحدهم، بل هي رسالة لكلّ مجتمع يظنّ أنّه بمنأى عن الانهيار..

- فالظّلم - أيّاً كان شكله - هو بذرة الدمار....
- والتّمييز – أيّاً كان مصدره - هو طريق الانقسام..
- والفساد - أيّاً كان حجمه - هو سرطان الأوطان...

فالوطن لا يُبنى بالشعارات ولا بالقوّة، بل يُبنى بالعدل والإحسان، ويُبنى حين يشعر كلّ فرد فيه بأنّه إنسان كامل الإنسانيّة، وبأنّ له حقوقاً لا تُنتقص، وكرامة لا تُمسّ، ومستقبلاً يستحقّ أنْ يُناضل من أجله، والتاريخ يكتب اليوم فصلاً مأساويّاً في سجل السودان، لكنّ الفصول القادمة لم تُكتب بعد، والأمل - رغم كلّ شيء - يبقى معقوداً على أنْ تأتي لحظة يفيق فيها الجميع من غفلة العنف، ويدركوا أنّ الوطن الذي يحترق لا يترك إلاّ رماداً لا غالب فيه ولا مغلوب، إنّما خاسرون فقط، فالإصلاح هو الطريق الوحيد للنجاة، والعدل هو البوصلة التي يجب أنْ توجّه كلّ خطوة...

وليكن في الحسبان بأنّه إنْ لم تتحقّق هذه المعادلة، فإنّ التاريخ سيواصل تسجيل مآسٍ جديدة، والأمم ستواصل دفع ثمن غفلتها عن أبسط القيم الإنسانيّة، فكلّ إنسان يستحقّ الكرامة، وكلّ وطن يقوم على العدل أو يسقط بغيابه....

فهنا همسة لضمائر شعب السودان الأصيل،

تواصلوا وتصالحوا، وأصلحوا ما بينكم، فإنّ الفساد في الأرض لا يصلحه إلاّ المؤمنون المتّحدون، وانظروا للمصلحة العامة وضعوها فوق المصالح الحزبية، والانتماءات الإقليمية، والخلافات الشخصية، واحموا أبناءكم، واعلموا أنّ مستقبلهم يكمن في التعليم، وفي الصحة، وفي الأمان والاستقرار، فلا تسرقوا منهم فرحة العيش في وطن آمن، وتسلّحوا بالصبر والأمل، والعزيمة الصادقة والإيمان باللّٰه ثمّ بالوطن وبأنفسكم، ولا تيأسوا من روح اللّٰه، فإنّه لا ييأس من روح اللّٰه إلا القوم الكافرون....

فها هو تاريخكم يشهد لكم، ودم شهدائكم يناديكم، وأطفالكم يتطلّعون إليكم، فلا تخذلوا هذا التاريخ، ولا تضيعوا هذه التضحيات، ولا تقتلوا أحلام هؤلاء الأطفال..

اللهمّ احفظ السودان وأهله، واجمع كلمتهم على الحقّ، وارزقهم السلام والأمان، واهد قادتهم لما فيه صلاح البلاد والعباد....

اللهمّ آمين...